لن يستطيع مؤرِّخو الوجدان الفلسطيني الإفلاتَ من موجة الفرح الشامل الذي أخرج الفلسطينيين، في كل مكان، عن طورهم العابس... وهم يتابعون مفاجآت فريقهم الوطني لكرة القدم.

لا أحد يختلف عن أحد. نحن أيضاً قادرون على اللعب البريء وعلى الفوز، وقادرون على تلمّس وحدتنا: على الإختلاف داخل السياسة، وعلى الإصطفاف خارج ما يُفرِّقُنا فيها. هكذا ذهبت أخبار المفاوضات حول نهاية الحل الانتقالي إلى ما تستحقه من تواضع وفتور استقبال، على الرغم من إغرائنا بأن نُسَمِّي ما نحن فيه دولة. فالرموز لا تصلح، دائماً، للعمل خارج السياق، بعيداً على المعنى والجوهر!

لنا عَلَمٌ يبدو أحياناً عاطلاً عن العمل، فهو لا يشير، حتى الآن، إلى سيادة حقيقية، ولو كان يخفق على وعد. لكن شبابنا التفوا به وتماهوا، رسموه على أجسادهم، وشماً واسماً، في عاصفة الفرح التي هبّت من ملاعب كرة القدم، حيث وجد العَلَمُ الوطني مجالاً حيوياً للخفقان.

هل هو الإنتقام من السياسة؟ أم هو السياسة بعينها وقد عثرت على أحد تعابيرها العفوية المكبوتة؟

في هويتنا عَطَشٌ إلى النجاح ، جوع إلى العادي، وحنين الى الكفاءة. فلا يشيرُ الفلسطيني السويّ إلى مكانة الضحية التي يحتلها إلاّ في السجال الفكري والعملي حول الحق والعدالة. ولا يجد معنى لحياته إلاّ في التمرد عن هذه المكانة، ليتمكن من ممارسة حياته العادية ونشاطه الإنساني في كافة الحقول؛

فهو يريد أن يثير الإعجاب لا الشفقة، الحماسة لا البكاء. وهو يريد الاحتكام إلى المعايير العامة في النظر إلى نشاطه الثقافي والرياضي ليدنو، أكثر فأكثر، من مساواة ما تتيح له إمكانية أن يمارس حياته الطبيعية ولو كانت محاصرة بشروط غير طبيعية. لقد أُرجِئت حياته طويلاً، وليس في عُمْر الواحد منا أكثر من عُمر.

وهو لا يرضى بأن يكون «موضوعاً» لا للحب ولا للكراهية، ولا «موضوعة» في البحث عن نوازع «الدونيّ» إلى التفوق على سيِّده، فلا سيِّد له إلا جنونه بالحرية. إن ما يستحق الملاحظة، أكثر، هو إحساس المصابين بعقدة «الدونيّة» تجاه الآخر البعيد بالتفوق على الفلسطيني الذي لا يصلح، في وعيهم ولا وعيهم، إلا للفشل، وإبقاء شباكه مفتوحة لتسجيل الأهداف في الملعب أو خارجه؛

فهل يحق لحارس المرمى الفلسطيني أن يصدّ كرة مهاجم، وهل يحق لشاعر فلسطيني أن يكتب عن رائحة الخريف؟ ذلك سؤال لا ينسجم مع أخلاقيات الرياضة البريئة، ولا مع تقاليد النقد الأدبي، ولكنه يفاجئنا بمدى ما وصلت إليه صناعةُ صورة الفلسطيني الوطنية في مرآة ذاته القومية.

لم تكن صورة «المقدَّس» الفلسطيني، إذاً، إلا فقرة في خطاب، يتكّئ فيه الخطيب على الموضوع وينبذ الإنسان: على الموضوع أن يسمو وأن يتجرّد، وعلى الإنسان أن ينحطّ ويتجمّد، فايّ اقتراب بينهما يمنح الفلسطيني حقوقاً قد تنسيه دوره في الموضوع، أساس الخطاب. وهكذا يكون البؤس أساس الحق!

ولا يريد الفلسطيني أن يكون مُقدَّساً. لا يريد أكثر من أن يكون عادياً بتحرره من ظروف غير عادية. وفي هذه الأثناء، فإنه يلعب كرة القدم، ويرسم، ويغني، ويرقص، ويُوَحِّد ما توحِّده ولا توحده السياسة. وفي هذه الأثناء يستمع إلى ايقاع الموسيقى والأغاني الرخيصة الذي يجتاح العالم والمحيط، مخترقاً خاصتنا الوطنية وطبيعة الاختلاف التي كُنّا نظن أننا طوَّرناها، في فترات حياتنا الأكثر سخونة، فلا أحد ينجو من آثار المناخ السائد، لا أحد ينجو من المراهقة ومن العولمة!

ولا أحد يختلف عن أحد.